المشرق الرقميّة
العدد العشرون
حزيران ٢٠٢٢

مراجعة كتاب:

أخبار النّحويّين وطرائفهم: النّحو بوجهٍ إبداعيّ!

رولا ماجد*

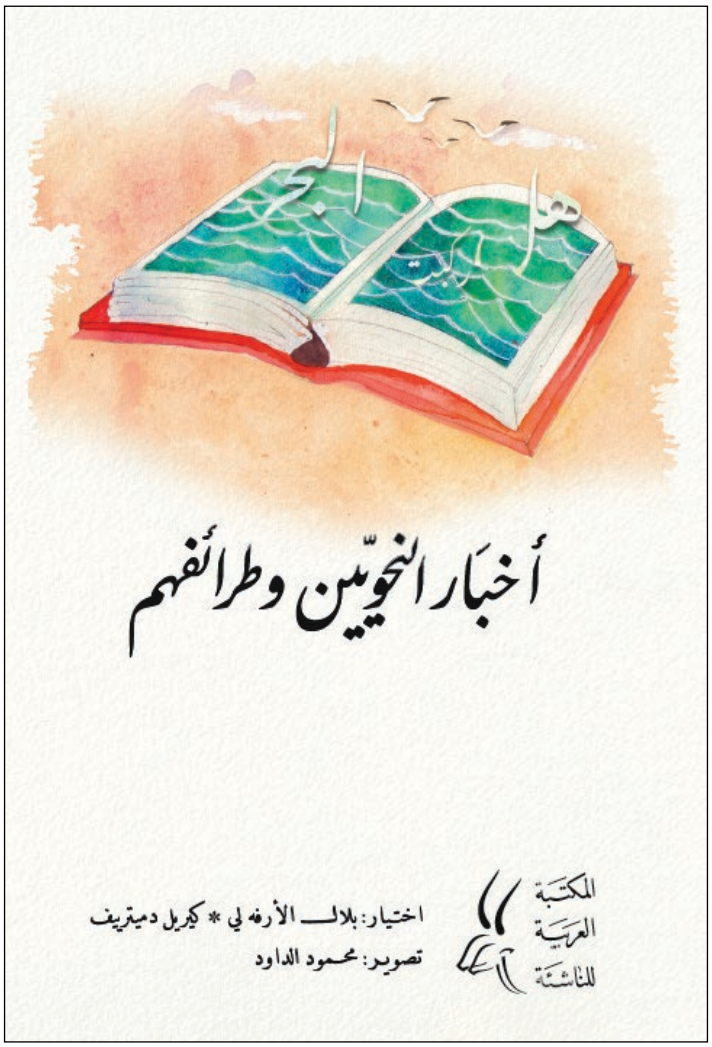

* شاعرة لبنانيّة. رئيسة رابطة الإبداع من أجل السّلام في لبنان. حائزة إجازة في اللّغة العربيّة وآدابها من الجامعة اللّبنانيّة. صدر لها ديوانا شعر.

عوّدتنا المكتبة العربيّة للنّاشئة الصّادرة عن جامعة نيويورك – أبو ظبي على إصدار مختارات تراثيّة مميّزة تشكّل حلقات مهمّة من سلسلة أدبيّة هادفة. وقد أصدرت مؤخّرًا كتابها الجديد بعنوان **أخبار النّحويّين وطرائفهم** الّذي اختار نصوصه الأستاذان بلال الأرفه لي[١] وكيريل دميتريف.[٢]

يبدأ الكتاب بمقدّمة وافية تشرح ماهيّته، وتقدّم تأطيرًا تمهيديًّا لنشأة علم النّحو وتجليّاته في العلوم، وتضيء على دور سلسلة المكتبة العربيّة للنّاشئة. ويضمّ الكتاب مختارات مقتطفة من ثمانية عشر مصدرًا، يعود معظمها إلى العصر العبّاسيّ لنحاة معروفين كابن قتيبة وابن الأنباريّ وابن الجوزيّ والتّنوخيّ وغيرهم...

الاختيار فنٌّ قائم بذاته، وهو عينٌ مسؤولة تنقّب في الكلّ لتختار ما يتوافق مع منهج النّاقل/المختار وتطلّعاته. وإنّنا أمام كتاب خُصّص لأدب النّاشئة، وتفرّع موضوعه إلى موضوعات مُعنونة كمدح النّحو وذمّه، ونشأته، وأخبار النّحويّين وأقوالهم، وما صدر عنهم ومنهم من مناظرات، وتصويب ما نتج من خلافات بشهود "فصحاء النّاس"[٣] آنذاك، كما يضمّ الكتاب الكثير من الطّرائف والمُلح الّتي ترسخ في ذهن المتلقّي لسلاستها وندرتها. تتّسم هذه المختارات بمعانٍ حكيمة ومسلّية في آن واحد، وترتكز بأسلوب عرضها على فنّ القول نثرًا، إضافة إلى ورود بعض الأبيات الشّعريّة.

تفرض الصّورة حضورها في ذهن النّاشئة، وتمنح النّصوص بعدًا جماليًّا ينسجم مع تطلّعاتهم، لذلك زها الكتاب بلوحات الفنّان محمود الدّاود الّذي اختار لبعضها المجاز التّعبيريّ/التّضمين، فقارب السّرياليّة موغلًا في باطن المعنى؛ مانحًا بعضها الآخر تعبيرًا تعيينيًّا/واقعيًّا يحاكي النّصّ ودوالّه. هذا التّباين بين أسلوبين فنّيّين يُعدُّ إيجابيّة للكتاب بغية كسر الرّتابة وإضفاء التّنوّع، إضافةً إلى الألوان ورموزها الّتي تعبّر عن حالات شعوريّة تتماهى مع المعاني والدّلالات.

---

[١] باحث لبنانيّ في اللّغة العربيّة وآدابها. أستاذ كرسيّ الشّيخ زايد للدّراسات العربيّة والإسلاميّة في الجامعة الأميركيّة في بيروت.

[٢] محاضر في الأدب العربيّ في جامعة سانت أندروز في المملكة المتّحدة. وهو مهتمّ بالقصيدة العربيّة المبكّرة وتاريخ الطعام والمعجميّة العربيّة.

[٣] بلال الأرفه لي وكيريل دميتريف، **أخبار النّحويّين وطرائفهم** (أبو ظبي: المكتبة العربيّة للنّاشئة، ٢٠٢١)، ٢٣.

النّحو في تعليمٍ تجانسيّ

لعلّ علم النّحو بما يحتويه من نظم وقواعد يظهر لبعض النّاشئة والدارسين معقّدًا وصعب الاستيعاب، ويُعدُّ "الجانب الجافّ من دراسة أيّ لغة، ويتّسم النّحويّون عامّة بالنّمطيّة لافتقارهم إلى الجانب الإبداعيّ."[٤] وإن خلا النّحو من الإبداع، فإنّ الإبداع لا يخلو من النّحو، ويمكن للإبداع أن يكون رافدًا لكلّ علمٍ جامد. وهنا نستشهد بـ **ألفيّة ابن مالك**[٥] وبنبوغ هذا العالِم في الابتكار، وبتقديمه علمَي الصّرف والنّحو عن طريق أراجيز[٦] تعليميّة ساهمت بشكلٍ كبيرٍ في تحفيز الطّلّاب ومساعدتهم على الحفظ؛ نكتفي بهذا المثال لنثبتَ أنّ للإبداع قدرة على رفد العلوم وتليينها.

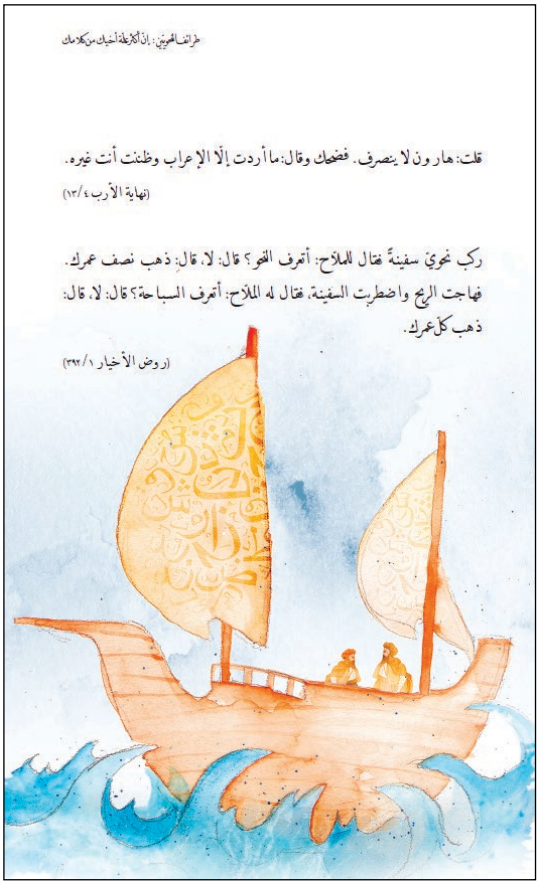

وانطلاقًا من هنا، تأخذ المختارات طريقها في ترتيب مواضيعها وفق عناوين جاذبة، وتضيء على جانب غير شائع من أخبار النّحويّين وحواراتهم الّتي قد تقرّب المسافات وتشكّل لهم أواصر قربى ذهنيّة مع اللّغة العربيّة. ميزة الكتاب أنّه يعرض على جيل الشّباب النّحو بأسلوب لم يكن متوفّرًا يومًا في الكتب المدرسيّة. فنحن نعلم أنّ جلّ ما يعرفه الطّالب عن النّحو قواعده، ونلاحظ عمق الهوّة الحاصلة بينهما وما يعانيه – الطّالب – في هذا الصّدد. وفي ظلّ الجهود المبذولة في ابتكار طرائق تعليميّة جديدة، يساهم الكتاب في ترسيخ بعض القواعد النّحويّة في أذهان النّاشئة بأسلوب تعليميّ غير مباشر، يُقدَّم من خلال الأخبار والطّرائف، فيضيء على نشأة النّحو ويطرح مقارنات نحويّة تبيّن الفروق الّتي قد تطرأ على المعاني بتغيير حركة من حركات الكلمة أو علاماتها الإعرابيّة؛ سنعرض بعض الأمثلة من الكتاب لنبيّن – ولو بطرحٍ متواضعٍ –

---

[٤] بلال الأرفه لي وكيريل دميتريف، **أخبار النّحويّين وطرائفهم**، ٩.

[٥] منظومة شعريّة شهيرة فيها خلاصة علمَي الصّرف والنّحو، انظر: ابن مالك، **ألفيّة ابن مالك في النّحو والتّصريف**، تحقيق سليمان بن عبد العزيز العيونيّ (الرّياض: مكتبة دار المنهاج للنّشر والتّوزيع، د.ت.).

[٦] قصائد منظومة على بحر الرّجز. (أراجيز: مفردها أرجوزة).

أسلوبه التّعليميّ، وممّا جاء في نشأة علم النّحو: "يقال إنّ ابنته قالت له يومًا: يا أبت، ما أحسنُ السّماء! قال: أي بنيّة، نجومُها؟ قالت: إنّي لم أرد أيّ شيء منها أحسن، إنّما تعجّبت من حسنها. قال: إذن فقولي ما أحسنَ السّماء! فحينئذٍ وضع كتابًا."[٧] كما وردت حكايات عن خلافات لغويّة وقعت بين نحويّي البصرة والكوفة أودت إلى مناظرات، كتلك الّتي وقعت بين الكسائيّ وسيباويه،[٨] وأخرى بين الكسائيّ وأبي يوسف القاضي في مجلس هارون الرّشيد: "ما تقول في رجل قال لرجل أنا قاتلُ غلامِك، وقال له آخر أنا قاتلٌ غلامَك، أيّهما كنت تأخذ به؟ [...] هو الّذي قال أنا قاتلُ غلامِك بالإضافة لأنّه فعلٌ ماضٍ، وأمّا الّذي قال أنا قاتلٌ غلامَك بالنّصب فلا يؤخذ لأنّه مستقبل لم يكن بعد."[٩] ومن الطّرائف: "قال رجل لأبي العيناء: أتأمر بشيئًا؟ قال: نعم، بتقوى الله، وحذف الألف من شيء!".[١٠]

واستنتاجًا من هذا العرض، أرى أنّ اختيار موضوع النّحو والنّحويّين يؤدّي دورًا استراتيجيًّا في استقطابٍ مُمنهج، وأنّ الكتاب جاء ليواجه النّحو بالنّحو، محاولًا معالجة الأمر بحكمة العارف، متّبعًا **مبدأ التّجانس**: "داوني بالّتي كانت هي الدّاء." أعني بمبدأ التّجانس معالجة النّفور من النّحو عن طريق الإبداع الّذي تجلّى هنا بتلك الأخبار والطّرائف وأيضًا التّصوير الفنّيّ.

ختامًا، إنّ هذا الكتاب بمحتواه الإحيائيّ والتّعليميّ والتّرفيهيّ الفنيّ يشكّل نقلة نوعيّة لعمليّة استرداد تراثيّ، ويبيّن قيمة النّحو وأهميّته في اللّغة الّتي تصبو إلى العلوم كافّة، ويؤكّد أنّ علم النّحو هو مفتاح اللّغة، ومن دونه تبقى معانيها مغلقة على نفسها. ويُظهر أنّ الإبداع ديناميكيّ يمكن أن يليّن العلوم الجامدة، وأن يُوَظَّف في غايات تعليميّة قد تكون نتائجها ناجعة.

[٧] الأرفه لي ودميتريف، **أخبار النّحويّين وطرائفهم**، ١٩.

[٨] الأرفه لي ودميتريف، **المصدر نفسه**، ٢٢-٢٣.

[٩] الأرفه لي ودميتريف، **المصدر نفسه**، ٢٣-٢٤.

[١٠] الأرفه لي ودميتريف، **المصدر نفسه**، ٤٣.